

دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين (أحمد توفيق المدني أنموذجاً).

أ. بوطيبي محمد

قسم التاريخ – جامعة المسيلة

Résumé :

Bou coups des algériens ont participé dans le mouvement national tunisien, par exemple : Ahmed Toufik et el Hadi el Madani, abd el Aziz th'alibi, Taieb ben issa, Ali Bouchoucha, Hocine el djazairi, Brahim t'faiche, abd Rahman yaalaoui, Saleh ben yahia. Tous ces gens des différents régions de l'Algérie par eus les émigrés des régions : Médéa, Ouargla, oied seuf, Annaba, Constantine et Oran... Et j'ai choisi hassen guellaty comme exemple à cause de son rôle dans le mouvement nationale tunisienne .

الملخص:

ساهم الكثير من المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية، منهم، أحمد توفيق المدني والهادي المدني، عبد العزيز الثعالبي، الطيب بن عيسى، محمد الصادق أرزقي، إبراهيم الطفيش، علي بشوشة، حسين الجزائري، عبد الرحمان اليعلاوي و صالح بن يحيى، وقد مثل هؤلاء مختلف مناطق القطر الجزائري ومن بينهم مهاجري جهات المدية، والورقليين، السوفييين، العنابيين، القسنطينيين والوهرانيين. وأخذت نموذجا حسن قلاني في هذه الدراسة نظرا لدوره الكبير في الحركة الوطنية التونسية.

مقدمة :

- ساهم الجزائريون كغيرهم من التونسيين في الحركة الوطنية التونسية، حيث يعود هذا النشاط إلى وقت مبكر منذ احتلال البلاد التونسية، ومن هؤلاء أحمد توفيق المدني، أحد ي الحزب الحر الدستوري التونسي.

- كما ساهم جزائريون آخرون في الحركة الوطنية التونسية، مثل: حسن قلاني مؤسس الحزب الإصلاحى، علي بوشوشة، عبد الرحمان اليعلاوي، الصادق الرزقي، الهادي المدني، الطيب بن عيسى، وغيرهم من الجزائريين الآخرين، وأحمد توفيق المدني الذي لعب دورا بارزا في الحركة الوطنية التونسية، لذلك تستحق هذه الشخصية تسليط الضوء نظرا لما قدمته من نشاطات مختلفة على الساحة السياسية والإعلامية التونسية.

1- نبذة عن حياته:

- ولد أحمد توفيق المدني في الفاتح نوفمبر 1889م الموافق لـ 24 جمادى الثانية 1317هـ، في مدينة تونس، من أسرة جزائرية مهاجرة من صلب محمد بن أحمد بن محمد المدني القبى، الغرناطى الأصل من السادة الأشراف .

- ولد أبوه عام 1852م، وتلقى علومه بالجامع الكبير، أما جده فقد شغل منصب أمين الأمناء (شيخ بلدية الجزائر العاصمة)، ونتيجة السياسة الفرنسية المطبقة ضد الأهالي الجزائريين قررت الأسرة السفر اتجاه تونس، حيث استقرت الأسرة في بجاية، لكن ثورة المقراني التي اندلعت عام 1870م حالت دون ذلك، مما ألزم الأسرة الهجرة نحو البلاد التونسية .

- ومن باب الصدف أن التقت عائلته بأسرة الشيخ عمر بويراز الجد بالأم لأحمد توفيق المدني، وانتقلت كلا العائلتين إلى تونس⁽¹⁾. أما أمه فهي عائشة بنت عمر بويراز وكريمة من عائلة ابن هشام التونسية الأصل، حيث تزوجت وعمرها 16 سنة مع أبيه محمد، وهو في سن يزيد عن الأربعين سنة. (2)

- تربي الابن أحمد توفيق في جو العائلة المحافظة على الشرف والدين، وفي الخامسة من عمره بدأ حفظ القرآن في الكتاتيب التونسية، أين تميز بقوة الحفظ والفراسة، حتى إذا بلغ السنة التاسعة أصبح الفتى أحمد يقرأ الجرائد، ويتبع أمور وأحداث السياسة التي بدأت تتخمر في ذهنه بفعل تتبع وتطلع العائلة وأخواله على القضايا السياسية السائدة في البلاد، حيث اضطلع على مجلة العروة الوثقى والمؤيد واللواء. (3)

-وفي سن العاشرة انتقل الطالب من الكتاب إلى المدرسة القرآنية الأهلية وتتلذذ على يد محمد صفر، ووضع في الصف الرابع مبكراً، وفي عام 1915م حكم على الشاب اليافع بالسجن مدة أربع سنوات، بعدها عاد على الجزائر ليناضل في صفوف جمعية العلماء المسلمين، وكان له الفضل في إنشاء نادي الإتحاد والترقي مع العلامة عبد الحميد بن باديس، كما انضم في صفوف الثورة الجزائرية عام 1956م، أما بعد الاستقلال فتقلد عدة مناصب منها سفيراً في تركيا، إيران، العراق. (4)

ترك العديد من المؤلفات منها :

- تقويم المنصور جمهورية الجزائر سياسيا اقتصاديا وطبيعيا
- حياة كفاح مذكرات في تونس 19015-1925م. الجزء الأول.
- حياة كفاح مذكرات في الجزائر ، 1925-1954م-الجزء الثاني.
- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م.
- مذكرات أحمد الشريف الزهار 1754-1830م.
- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا.

2-النشاط السياسي لأحمد توفيق المدني :

2-1 أحمد توفي المدني في مشروع ثورة فاشل:

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، ظهرت فكرة إعلان الثورة في تونس، بإيعاز من طرف أحمد توفيق المدني والصادق الرزقي⁽⁶⁾ في ديسمبر 1914م بالاشتراك مع أحمد نجاح، محمد النيفر، محمد السعيد الخلصي والهادي مزاح، تلك الجماعة التي كانت تدرس الخطط والمنهاج العملية في الاجتماعات السرية التي انتهت إلى تفجير ثورة اعتمدت على الأسس التالية : (7)

1. بث دعاية واسعة لدى الجيش والشعب التونسي ضد تجنيد فرنسا للأهالي كقطعان في الحرب العالمية الأولى.

2. مواجهة فكرة الخمول واليأس التي أصابت المجتمع التونسي منذ حوادث الزلازل.

3. الاتصال بقبائل بني زيد في الجنوب التونسي، لمواجهة الحامية المتواجدة في تلك الجهات، وفتح واجهات متعددة للجيش الفرنسي .

4. بمجرد خروج الحامية الفرنسية من قفصة، يتم مهاجمة الثكنات التي يوجد فيها الأسرى الألمان حتى يكونون ضباطا للمقاتلين التونسيين والزحف على مدينة قابس واحتلالها .

5. الاعتماد على الطلبة الزيتونيين الجزائريين من جهات تبسة، عين البيضاء وقسنطينة لبث الدعاية الحربية. (8)

6. عندما تتجح العملية يستطيع المواطنون التونسيون خوض العمل .

7. تنشأ شفرة موحدة للاتصال (8).

- وتم تكليف أحمد توفيق المدني بالاتصال مع الجهات الجنوبية، وعلى رأسهم علي فارس قصد الاتصال بالقبائل، وتحضير الأسلحة تحت التستر وراء تجارة التمر بعد أن انقطع عن الدراسة، لكن هذا المشروع لم ينجح بسبب وشاية أحد الأطراف الذين انظموا إلى الجماعة السرية، وتم إبلاغ الأمر إلى الأمن الفرنسي، الذي انتهى بإلقاء القبض عليه يوم 14 فيفري 1915م، وبذلك فشل مشروع الثورة في المهد (9)، خلال الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التي جندت خلالها السلطات الفرنسية حوالي 56000 مقاتل، و 45000 عامل من الشباب التونسي خدمة للحرب، وفقدت تونس 45000 ضحية من فلذات أكبادها(10).

- بعد خروج أحمد توفيق المدني من السجن، وتشبعه السياسي والفكري من خلال الجرائد والصحف السرية التي كانت تصله سرىا من بعض المتعاطفين معه، فقد انفتحت نفسيته على ممارسة النشاط السياسي بالاتصال مع بعض السياسيين وعقد الاجتماعات السرية.(11)

2-2 الاجتماعات السياسية السرية :

2-2-1 **اجتماع مطبعة محمد التليي :

- كان أول اجتماع سياسي سري لأحمد توفيق في بداية 1919م في مطبعة محمد التليلي⁽¹²⁾، حيث حضر هذا الاجتماع خمسة أعضاء، هم: الصادق المعروف، محمد بن عمار، الشيخ محمد الرياحي، الشيخ أحمد المنستيري، أحمد توفيق المدني، فخلال ذلك اللقاء تمت مناقشة قضايا الوضع الدولي، خاصة وأن الفترة هي فترة نهاية الحرب العالمية الأولى وأهم انعكاساتها على الشعوب المستعمرة، وأهمها: بنود ولسون الأربعة عشر التي كانت تحمل في طياتها: تقرير مصير الشعوب، كما ناقش الاجتماع مسألة طرح القضية التونسية في مؤتمر الصلح⁽¹³⁾، ومن خلال هذا الاجتماع تم تعرف أحمد توفيق على الشيخ عبد العزيز الثعالبي، الذي كان قد سافر إلى باريس من أجل تولي مهمة الدفاع عن القضية التونسية . كما تم التوصل إلى ضرورة مشاركة الوفد التونسي في مؤتمر الصلح والتنسيق والتشاور مع وفود البلدان العربية الحاضرة ، رغم انعدام الثقة في الدول الكبرى.⁽¹⁴⁾

2-3-ب- اجتماع مدرسة السلام :

- ظلت الاجتماعات السياسية متواصلة بين هذا الرعيل وزملائه حول القضايا الهامة في العالم الإسلامي، حيث عرفت إحدى المدارس المذكورة لقاء آخر بحضور السادة: الشاذلي المورالي، الشيخ صالح بن يحي، الشيخ إبراهيم الطفيش، الشيخ أبو اليقظان، أحمد توفيق المدني وإبراهيم بن عيسى وغيره من الشخصيات الأخرى. وفي هذا الاجتماع تعرف أحمد توفيق على الشيخ علي كاهية والشاذلي خزندار.⁽¹⁵⁾

3 - نضال أحمد توفيق المدني في الحزب الحر الدستوري التونسي:

لعل من أهم دواعي تأسيس الحزب الحر الدستوري هو فشل عبد العزيز الثعالبي في مسعاه عشية انعقاد مؤتمر الصلح، حيث يذكر أحمد توفيق: أنه في شهر فيفري وصلت رسالة من الشيخ الثعالبي، قرأتها بنفسه من بعد عند الشيخ حمودة المنستيري يقول فيها ما من مصلحة: أن حركة ولسون قد أخفقت، وأن الآمال المبنية قد انهارت وعلمت الشعوب العربية كلها أنها لا تتال حقها إلا بجهادها، ولهذا لزم الأمر الاستعداد لكفاح طويل ومرير ربما ولجت رحابه الأجيال.⁽¹⁶⁾ إنه لم يعد الآن المطالبة بإلغاء نظام الحماية، فذلك قول لا يسمع له أحد اليوم، إنما يجب أن نطالب بإعلان الدستور التونسي، وأخذ زمام الأمور بأيدينا. يجب أن يتطور الحزب وينظم ويجب أن يدع: الحزب الحر الدستوري التونسي، ويشمل كل الطبقات التونسية... ومن خلال هذه المقطعات من رسالة عبد العزيز الثعالبي يتبين أن الدعوة لإنشاء الحزب الحر الدستوري التونسي في 14 مارس 1920م من طرف مجموعة من الأعضاء، حيث يقول أحمد توفيق المدني: >> وهكذا فإن جماعة... أعلنوا تأسيس الحزب الحر الدستوري... وعزموا على إرسال الوفد إلى باريس بأسرع وقت ممكن... ويضيف قائلا: >> وكنت والحمد لله من بين ذلك الرعيل الأول الذي أدى القسم وأوفى بما عاهد الله عليه...<<⁽¹⁷⁾.

-وبذلك بدأ أحمد توفيق نشاطه السياسي ضمن الحزب الحر الدستوري، وربط علاقاته مع الأعضاء البارزين في الحزب بداية من شهر ماي، وأصبح عضوا ضمن اللجنة العليا للحزب. وهكذا أصبح أحمد توفيق ظاهريا محاسبا في مكتب الطاهر بن حمودة المنستيري يقوم بضبط الحسابات الزراعية، لكن في الخفاء كان كاتباً للحزب الحر الدستوري وحافظاً لأسراره.⁽¹⁸⁾ وتشير التقارير الأمنية أن انه كان يتقاضى من الحزب مبلغا شهريا قدره 600 فرنك، وهو خمس ما كان يتقاضاه رئيس الحزب.⁽¹⁹⁾

- يبدو أنه كان صاحب علاقات واسعة مع رجال الصحافة، مما جعل الحزب يبعثه وسيطا إلى الشاذلي المورالي صاحب جريد المنير يترجاه كي يعدل عن الأقوال التي نشرها ضد الشيوعيين الذين كانت تربطهم علاقات طيبة مع الحزب، إذ اتهم هذا الأخير الأمين العام للحزب الشيوعي ببعض التهم، التي كادت أن تعصف بالعلاقات التي تربط الحزب الحر الدستوري بالحزب الشيوعي . (20)

3-1- وفد الأربعين ومقابلة الملك الناصر باي (18 جوان 1920م):

من غير المعقول أن يرفع الحزب الحر الدستوري مطالبه إلى السلطات الفرنسية، من دون اطلاع الملك الناصر باي (21) على انشغال الحزب، لذلك خططت اللجنة التنفيذية للحزب وجهزت وفدا سياسيا يتكون من 40 عضوا* من مختلف الفئات التونسية من عمال، تجار، فلاحين، مدرسين وعلى رأسهم الشيخ محمد الصادق النيفر (22)، وبهدف تشكيل وفد لمقابلة الملك، تشكلت لجنة سياسية مكونة من عشرة أعضاء، منهم أحمد توفيق المدني في بيت الشيخ حمودة المنستيري، قصد التخطيط للعملية وزيارة الملك الناصر باي في قصره ببلدة المرسى، وعرض الانشغالات والمطالب السياسية التونسية عليه، تلك المقابلة التي واجهتها صعوبات في البداية، وصدت أبواب القصر في وجه الوفد من طرف الوزير الأكبر الطيب الجلولي، وكاد الوضع أن يتحول إلى مأزق خطير بسبب تعنت هذا الأخير، بعدم مقدرة الملك على مقابلة الوفد، لأنه كان طريحا على فراش المرض، لكن تدخل الابن الأكبر المنصف باي (23) حسم الأمر بإدخال الوفد إلى القصر، وتمت مقابلة الملك وهو فعلا على فراش المرض، حيث عرضوا عليه مسألة تأسيس الحزب الحر الدستوري، وأخبار الوفد التونسي المتوج نحو فرنسا لطرح القضية الوطنية في مؤتمر باريس، وجملة مطالبه السياسية، وفي هذا اللقاء كان ينتقل أحمد توفيق المدني بين الصفوف، ويتأكد من الأعضاء الحاضرين والغائبين من الحزب . (24)

3-ب- نتائج:

- اتساع العلاقة بين الأهالي والحزب وانضمامهم للوفد حتى أصبح عدد المساندين يقدرون بالمئات.
- حدوث تجاوب بين الملك الناصر والوفد وقبوله مبدئيا المطالب التي كانت تتماشى ومصالح الشعب التونسي (25).

4- مع الوفد التونسي الثاني :

- بعد عودة الوفد الأول من باريس، ونجاحه في إخماد الأصوات التي كانت تطالب بالاستحواذ على الأوقاف التونسية الخاصة، على عكس المطالب السياسية التي لم تجد لها أذنا صاغية، خاصة مطلبية: المجلس التشريعي والحكومة المسؤولة أمام المجلس التشريعي. لأجل ذلك اجتمع الدستوريون لتحويل هذين المطلبين، وهو أن يعرض المطلب الأول بمجلس تفاوضي على قاعدة التساوي المطلق بين التونسيين والفرنسيين، أما مطلب الحكومة المسؤولة فتم استثناء منه ممثل فرنسا قائد الجيش، وأميرال البحرية.

- إن المطالب السياسية التي حملها الوفد الثاني مرة أخرى إلى باريس بقيادة الطاهر بن عمار في 22 ديسمبر 1920، قصد محو الصورة الخطرة على الكيان الاستعماري التي رسمتها الأحزاب اليمينية الفرنسية على الوطنيين الدستوريين، (26) والتي عارضها بعض الدستوريين، ومنهم أحمد توفيق المدني، وبذلك أصبحت المطالب على النحو التالي :

1. مجلس تفاوضي مشترك بين التونسيين والفرنسيين يملك حق وضع منهاج أعماله .

2. حكومة مسئولة أمام هذا المجلس باستثناء المقيم العام الفرنسي والجنرال قائد الجيش والأميرال قائد البحرية الفصل بين السلطات الثلاث .

3. قبول التونسيين في جميع الوظائف العامة إذا استوت الكفاءة.

4. التساوي في المرتبات بين التونسيين والفرنسيين.

5. الانتخابات الحرة للمجالس البلدية

6. حرية الصحافة والاجتماع والمؤسسات .⁽²⁷⁾

7. التعليم الإجباري العام.

8. مشاركة التونسيين في ابتياع الأراضي المخصصة للمستعمرين.⁽²⁸⁾

4- مواقف أحمد توفيق المدني من المطالب الجديدة :

- اعتبر أحمد توفيق المدني أن تحويل المطلبين المذكورين سابقا هو وأد للثورة وإعدام للاستقلال، وأن الأحرار بطشوا بالحرية بدعوى الاعتدال والحصول على الحقوق البسيطة،⁽²⁹⁾ إذ يقول: >> ثرت يومئذ ثورة عارمة، تحدثت الناس عنها كثيرا، وقابلت الجماعة وخاصة الصافي، حمودة المنستيري، محمد بن عمار أحمد التليلي، صالح بن يحيى... إنكم قد خنتم الوطن... أعطيتم الفرنسيين طوعا واختيارا حق التشريع ببلادكم... أهذه هي بداية الاستقلال... أصبحتم أذل وأحق من مصطفى بن إسماعيل والصادق باي عندما قبل الحماية...<<.⁽³⁰⁾

5- تأسيس اللجنة الثانية للحزب الحر الدستوري و أمانة أحمد توفيق للقلم :

قصد تأطير الحزب وتنظيمه وهيكلته، اجتمع بعض الأعضاء البارزين يوم 29 ماي 1921م في منزل حمودة المنستيري ببلدية المرسى بحضور 51 عضوا *، منهم المناضل أحمد توفيق المدني. وفي هذا الاجتماع استهل عبد العزيز الثعالبي بتقييم نشاط اللجنة التنفيذية الأولى وأعمالها، وما حققه الوفدين المفاوضين، تمهيدا لعرضها على سمو الباي، فطلب وجوب انتخاب أحمد توفيق المدني أمينا عاما مساعدا يتولى القلم العربي باللجنة التنفيذية، ثم انتخبت اللجنة التنفيذية الثانية للحزب الحر الدستوري التونسي على النحو التالي :

أحمد الصافي: أمين عام للحزب، أحمد توفيق المدني : أمينا عاما مساعدا للقلم العربي، الطيب الجميل أمينا مساعدا.

حمودة المنستيري: أمينا للمال، المحامي ألبير: أمينا بالنيابة (يهودي)، المنوبي درغوث: مستشار، الطيب رضوان كمستشار، عبد العزيز الثعالبي: عضو لكنه الرئيس الفعلي، إضافة إلى تسعة عشر عضوا آخرين بمثابة أعضاء داخل اللجنة التنفيذية المتكونة من 27 عضوا، كما تم إقرار لجنة تشريعية للحزب.⁽³¹⁾

6- مع الوفد الدستوري الثالث في باريس :

بفعل تأجج المعارضة الشعبية في تونس بضرورة إدخال إصلاحات جديدة، وكثرة عيوب المجلس الكبير التونسي وحدثت انتخابات في شهر جوان 1924م، التي فازت فيها كتلة اليسار، التي يتزعمها الرئيس إدوارد هيريو رئيس الحزب الراديكالي الذي كان يجمع أحزاب يسارية تتميز بأفكارها الحرة .⁽³²⁾ فخلال مؤتمر الأحرار المنعقد في 16 سبتمبر 1924م تقرر إيفاد وفد تونسي آخر إلى باريس لبسط المسألة التونسية على الحكومة الفرنسية الجديدة والرأي العام الفرنسي، وإقناع أصحاب الأفكار الحرة التي تبوأ مقاعد الحكم إثر انتخابات 11 ماي بأحقية المطالب وحسن النوايا⁽³³⁾، لذلك رأى أعضاء الحزب الحر الدستوري ضرورة طرح المسألة على الحكومة الجديدة، مثل تحويل

المجلس الكبير إلى مجلس تفاوض، لأجل ذلك الغرض تم تشكيل الوفد المتكون من السادة: أحمد الصافي: رئيسا، أحمد توفيق المدني: كاتب عضو اللجنة التنفيذية، صالح فرحات: عضوا ، الطيب الجميل: عضو محامي. (34)

-لقد سافر الوفد الدستوري الثالث يوم 29 نوفمبر، باستثناء أحمد الصافي الذي سافر من قبل لاحتياجات أمنية، وسط توديع حار من الأهالي والمؤيدين للحزب، وصولا إلى مدينة مرسيليا يوم 01 ديسمبر 1924م (35)، حيث كان الوفد يحمل عريضة تحمل آلاف التوقيعات للأهالي التونسيين المتعاطفين مع الحزب قصد لفت القضية الوطنية إلى ممثلي الأمة والحكومة الفرنسية، لمحو فكرة الحزب الدستوري البعيد عن التوجهات الاشتراكية، بينما المطالب بقيت نفسها منذ 1920 م الهادفة إلى المساواة بين الجزائريين والتونسيين والمساهمة في تسيير شؤون بلادهم . (36)

6-1- نشاط وأعمال الوفد في باريس:

التشاور بين أعضاء الوفد حول المسائل الهامة ومنها ضرورة تحرير بيان للشعب التونسي قصد توضيح مواقف الوفد مقابلة أحمد الصافي النائب الاشتراكي ماريوس موتي.

- الاتصال بالنائب السنغالي الأصل لكنه رفض المقابلة التي قد تحدث لاحقا.

- مقابلة النائب الشيوعي برتون قصد التوسط لمقابلة رئيس الحكومة الفرنسية بواسطة مدير ديوانه ميسو إسرائيل، لكنه بحجة أن الوفد أصبح محل إزعاج من طرف الباي التونسي الذي احتج على هذه الزيارة. (37)

- مقابلة هنري دي شامبون صديق الحزب الذي ينتمي إلى عصابة اليسار، قصد السعي لمقابلة ادوارد هيريو الذي رفض المقابلة في 3 ديسمبر 1924م أثناء مقابلته لبيرتون.

- زيارة جريدة الكوتيديان اليسارية التي تفهمت الوضع، لكن تأسفت بحجة التمويل و مصلحة الجريدة .

- وفي نفس التاريخ السابق التقى أعضاء الوفد بالسيد حاج علي رئيس جمعية نجم شمال إفريقيا، والسيد ميصالي الحاج .

- عرض مطالب الوفد على ماريوس موتي عضو مجلس الأمة والأوضاع التي آلت إليها البلاد(38).

- مقابلة أعضاء جمعية حقوق الإنسان الفرنسية، وأمينها العام ميسو فيرنوت، الذين وعدوهم بطرح القضية باسم الوفد خلال المؤتمر الذي سيعقد بمرسيليا يوم 27 ديسمبر 1924م.

- 13 نوفمبر 1924م تم مقابلة وزير المستعمرات ادوار دلاديه الذي رد عليهم بعدم التدخل في أمور بلاد الحماية، واكتفى بتقديم بعض النصائح لأعضاء الوفد وتقديم يد المساعدة. (39)

-وظل الوفد التونسي يواصل جهده بين الصحافة الصباح (لومتان) اليومية، (الكوتيديان) وباريس الفتاة (البيتي بارزيان) و غيرها من الجرائد الأخرى، الجمعيات الحقوقية وناب الأمة والبرلمان والشخصيات الهامة وخاصة اليساريين، لكن دون جدوى، وبالتالي فهم أعضاء الوفد الدرس متأخرين (40).

6-2- نتائج زيارة الوفد التونسي الثالث :

- فمن خلال تفحص يوميات الوفد الثالث التي دونها أحمد توفيق المدني طيلة رحلة الوفد من 29 نوفمبر 1924م إلى غاية 22 ديسمبر من نفس السنة، تم الوصول لبعض النتائج التالية:

- تلاحم الأهالي مع الحزب الحر الدستوري.

- ظهور خلاف بين الباي و الحزب.

- معرفة أعضاء الوفد مدى التلاعب السياسي لمختلف الهيئات والتيارات السياسية.
- مواجهة المشاكل والتهم الملفقة من طرف الوالي العام في تونس والعودة بخفي حنين (41).

7- موقف أحمد توفيق لمشروع التجنيس الفرنسي في الإيالة التونسية :

يعد أحمد توفيق المدني من أشد المعارضين لقانون التجنيس عام 1923م (42)، إذ يقول ما خاننا يومئذ إلا المجلس الشرعي، و يضيف : >>...ذهبت إليهم واحدا واحدا فكنا نقابل بالتقدير و الاحترام <<(43)، ويقول في شأنهم : >>...مصاييح الظلام نصروا الظلام وقاوموا النور، نقل لكم بصراحة إن التجنيس حرام وكفر ، وقال بعضهم وهو الشيخ محمد بن يوسف أننا لا نستطيع إطلاقا وبأية صفة من الصفات إعلان ذلك لا قولاً ولا كتابة بالتهديد، فالقرار الذي صدر منهم قاس وشديد ونحن لا نستطيع أن نتمرد-أي نهان- في آخر أعمارنا، قلت محتجا صاخبا أتخشونهم والله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، اتفقوا عليه وهم كارهون عندما كانوا يسمونه سيدي الحبيب خادم فرنسا المطيع عامله الله بما يستحق، إلا المفتي الحنفي الشيخ العلامة محمد بن الخوجة فقد قال كلمة الحق جاهر بردة المتجنس رحمه الله ورضي عنه <<(44)، وعاتب السيد أحمد توفيق المدني دعاة التجنيس بالقول التالي : >> أما صغار العلماء فقد جاهرُوا بكلمة الحق ... إذا أسقطك العلماء فسيفرّعك الشعب بمجّدك الله، وكان فيما بعد شأن يذكر علما و عملا، أما رجال المجلس الشرعي فقد توليت قولاً وتولى أصحابي كتابة تنشر فضيحتهم ومهاجمتهم، ومعاملتهم بما يستحقونه زراية وتحقيرا وكانت العامة تقول عند مرورهم : انظروا شبيهة جهنم <<(45)

8-التجمعات و التوعية الجماهيرية و تكوين الشعب الدستورية:

بعد تشكيل الحزب الدستوري وتأليف اللجنة التنفيذية للحزب قررت هذه الأخيرة يوم 6 سبتمبر 1921م الخروج بالحزب من دائرة الانكماش داخل العاصمة إلى دور إشراك الشعب.(46) في المسؤوليات، وذلك بتكوين الشعب في المدن والقرى التونسية، حتى تكون وسيطا بين القمة والقاعدة، ويقول أحد توفيق المدني: ومن أجل تحقيق تلك الغاية العملية النبيلة شرفتني الهيئة بأن انتدبتني للقيام بهذه المهمة وعينت معي محمد الجعايبي صاحب جريدة الصواب .(47)

وبالفعل فقد غادر العاصمة يوم 23 سبتمبر 1921م إلى بلاد الساحل، حيث زار سوسة التي عقد فيها أول اجتماع وخطب فيهم كما زار قرى الساحل منها: أكودة، جمال، القصيبة، المسعدين، مساكين، قصر هلال ومدينة صفاقس والقيروان، فكان في كل منطقة يحط رحاله فيها إلا وخطب في الناس ويؤسس الشعب الدستورية ويعامل ويقابل مقابلة الأسياذ من الأهالي.

- كما زار بنزرت التي مهد له فيها الجو حمودة بن ميهوب الزواوي الجزائري وبنزرت البحرية وماطر، حيث مكن هذا المناضل من تأسيس أكثر من 130 شعبة دستورية في هذه المناطق قبل نفيه للجزائر . (48)

9- النضال النقابي :

لأول مرة في تاريخ البلاد التونسية التف العمال حول قيادة قومية مخلصه لهم بعد أن كانوا أشتاتا، فخرجوا من عزلتهم وأرسلوا نوابهم إلى العاصمة للتشاور مع محمد علي الحامي، واستمر نشاط العمال رغم معارضة الاشتراكيين والسلطات الفرنسية ضد مشروع المؤسسة النقابية التي ظهرت يوم الفاتح نوفمبر 1924م، حيث اجتمع محمد علي الحامي ورفاقه في قاعة بنهج الجزيرة مع العمال لينظروا في تأسيس جامعتهم النقابية، وانتخبوا لرئاسة هذه الجلسة هيئة تضم محمد علي، الطاهر

حداد وأحمد توفيق المدني والمختار العياشي، لكن هذا المشروع فشل في تأسيس الحركة النقابية التي انبثقت يوم 3 ديسمبر 1924م تحت جامعة عموم العملة التونسيين . (49)

وبذلك نلاحظ دور أحمد المدني في تأسيس نقابة عمال تونسية وجمع شتات العمال، وإنقاذهم من الخطر الداهم بطريقة ذكية والقيام بالواجب للمطالبة بحقوق الحركة العمالية مع بعض الأصدقاء القلائل من الحزب الحر التونسي، أمثال الطاهر صفر والطاهر الحداد وأحمد الدرعي ومساندة محمد علي الحامي⁽⁵⁰⁾، كما عمل على تقريب الحركة العمالية من الحزب الدستوري وذلك بجمع الأموال للحركة، ومنه مبلغ 5000 فرنك من صندوق الحزب على حد قوله: >> ومد الشيخ المنستيري يده إلى محفظة أوراقه ودفع خمسة آلاف فرنك، فتناولتها شاكرًا، وخرجت مسرعا أمتطي الرتل الحديدي إلى باب السوق، ودخلت مكان الاجتماع وكان مكتظا بجموع طائفة من مختلف طبقات العمال، فدفعت أمامهم للأخ محمد علي الخمسة آلاف وتعالى هتاف القوم للحزب الدستوري⁽⁵¹⁾، وأصبح عضوا فاعلا في جامعة عموم العمال التونسيين، يتردد باستمرار على اجتماعاتهم ويخطب فيهم. ولذلك اتهمت اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري بمساندتها للحركة النقابية من طرف إدارة الحماية الفرنسية، التي أمرت يوم 5 جانفي 1925م بتفتيش منزل أحمد توفيق المدني، ومقر ومسكن محمد علي الحامي. (52)

10- موقف السلطات الفرنسية من أحمد توفيق المدني :

بفعل النشاط السياسي الذي كان يقوم به أحمد توفيق المدني، فإن السلطات الفرنسية ألقت القبض على أحمد توفيق المدني في سن السابعة عشر من عمره صحبة حسين الجزائري، والحجة في ذلك ثابتة والمتمثلة في المواقف المعادية لفرنسا والتحريض ضدها بواسطة وثائق وجدت بحوزته وتتمثل تلك الوثائق فيما يلي :

1- تنظيم قصيدة في شكل حوار بين فرنسا، إنجلترا، روسيا وتونس والسلطان العثماني تتضمن لهجة شديدة ضد فرنسا.

2- العثور بحوزته على نظم لحسين الجزائري، مقال أحمد توفيق المدني ينتقد فيه السلطة الاستعمارية.

3- صورة غليوم الثاني ملك ألمانيا وعدو فرنسا، مقال بعنوان: اضطهاد المسلمين بتونس ينتقد ويبين سياسة فرنسا اتجاه اللغة العربية، مدح الجيش التركي الذي كان في منظوره أنه سيحرر تونس، كما حررها وطرد منها الإسبانيين في القرن السادس عشر . (63)

غير أن السجن كان مدرسة لأحمد توفيق المدني وتجربة سياسية وفكرية، وأضفى وزنا سياسيا على حياته المستقبلية التي لا يحيط بها أدنى شك أو ظن، هذا السجن الذي جعل منه شاعرا، فيلسوفا ناثرا وأديبا، فكتب ما يلي في جانفي 1918م داخل الغرفة رقم 12: >> فإذا كنت قد دخلته واكتفيت بالأرض فراشا وبالعراء لباسا وقنعت بالجوع طعاما وبالوحشة أسبابا وتوالت عليك الأيام ومرت الشهور وانقضت الأعوام وأنت على تلك ثم خرجت من جديد إلى عالم الحياة. >> (64)

ويفتح العالم صحايف أسرارهِ و تسقط أمامك حجب اللانهاية فتبصر الخيال مجسما، وترى المعنويات محسوسة وتتحوّل أيها السجن السامي الذي أيها المكان العلي أمنحك... فأنت أستاذي في الدنيا وأنت مكوني فيها، إنني سأغادرك أيها الأستاذ وكيف أصطبر على فراقك وكيف أستطيع ؟ لكن قضى الله بأن نفترق بعد أن صفا بيننا العيش ثلاثة أعوام مستتمة فسرى الذين ظلموا أنهم إذا دخلوا السجن ... يستعدوا لخوض الحياة السياسية فقد أخرجوا بعد أعوام ثلاثة رجلا يستعد للجهاد

في سبيل الحرية لقومه والاستقلال لبلاده⁽⁶⁵⁾. كما قامت الجهات الأمنية الفرنسية بتفتيش بيته يوم أن كان عضوا في اللجنة التنفيذية للحزب الحر التونسي، متهمة إياه بالعداء للإدارة الفرنسية، وفي ذلك قال فيه الشاذلي خزندار :

بفضلك أيها الوطني
فأنت التونسي و إن
تراض جوامع الزمن
دعوك بأحمد المدني

-كما داهمت السلطات أعضاء اللجنة التنفيذية، متهمة أعضاءها بمساندة وبتأييد محمد علي الحامي وصورت خطر الهيجان في البلاد أنه من فعل الوطنيين والشيوعي، لذلك أمرت يوم 15 جانفي 1925م بتفتيش منزل أحمد توفيق المدني⁽⁶⁶⁾، غير أن استمراره في النشاط السياسي، جعل السلطات الفرنسية تقوم بنفيه إلى الجزائر يوم السبت 6 جوان 1925م بحجة أنه جزائري الأصل، وبذلك أبعدته عن وطنه الذي ولد فيه وترعرع فيه وهو تونس⁽⁶⁷⁾، لكن لسوء حظ الفرنسيين لم يجدوا شيئا من الوثائق التي تم تحصينها في مكان لا تستطع فرقة التفتيش الوصول إليها⁽⁶⁸⁾. واستمرت أعين الفرنسيين في مراقبة الثائر أحمد توفيق المدني، لتجد له في هذه المرة طريقة الإبعاد بالنفي نحو الجزائر بسبب مقال نشره في جريدة إفريقيا حول حرب الريف والمجاهد عبد الكريم الخطابي حيث مجد هذا الرجل البطولي، وفضح الأساليب الفرنسية مع ذمه للطبقات العميلة التي سايرت فرنسا وخدمتها بجوارحها، مما جعل السلطات الفرنسية تبعده نحو الجزائر بعد تحقيق مع السيد كامبانا في 25 جوان 1925م، وتم تسليمه إلى مفتش أمن عنابة⁽⁶⁹⁾.
-وبذلك انتهى عهد أحمد توفيق المدني في النضال المباشر، وبنهاية دوره في النشاط التونسي قال فيه الشاذلي خزندار اعترافا ببطولته ومواقفه الباهرة ما يلي :

هذا الأبي التونسي	هذا هو الوطني الممجّد
هذا هو المنصور	بل هذا هو المدني أحمد
هذا الصقيل يراعه	أمضى في السيف المجر
فتاكة أعلامه	يرقى الشعور لها و يصعد
هذي المنابر تعرفه	سلوها ثمة تشهد
هذي مواقفه	و مازالت هنا و هناك توجد
هو آية الآيات يركع	للإله بهما ويسعد
هو خادم لبلاده	ولدين سيدنا محمد
فلله ينصر حربه	فبمثله الإسلام يسعد
و يريه في الخضراء	ما يرجى لها منه ويسعد ⁽⁷⁰⁾

الخلاصة:

-كان أحمد توفيق المدني واحدا من الجزائريين الذين ساهموا في بناء الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين، وبالذات في الحزب الدستوري الحر التونسي إلى جانب ابن عبد العزيز الثعالبي .

-لقد كان أحمد توفيق مدافعا على القضايا التونسية في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية، فهو المفكر والنقابي والسياسي والصحفي.

-يعتبر أحمد توفيق المدني من الرجال المناضلين الأحرار المحافظين القلائل الذين دافعوا عن القضية التونسية في البداية، والقضية الجزائرية معا بعد نفيه من طرف السلطات الفرنسية فيما بعد من بلاده بالولادة إلى بلده بالنسب.

هوامش البحث

- (1)- أحمد ،توفيق المدني ، حياة كفاح (مذكرات). في تونس 1905- 1925 ج 1 ، (الجزائر : ، ش.و.ن.ت ، 1973)، ، ص13.
- (2)- نفسه ، ص 16 .
- (3)- نفسه ، ص20-22.
- (4)- عمر ، بن قفصة ، أضواء على الصحافة التونسية ، 1860- 1970 . (ط 1، تونس : دار بوسلامة للطباعة والنشر ، 1972)، ص 129.
- (5)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 351 .
- (6)- نفسه ، ص 85 .
- (7)- نفسه ، ص87، 88.
- (9)- نفسه ، ص97- 99 .
- (10)- أحمد، العباسي ، الشيخ عبد العزيز الثعالبي ودفاعه عن القضية التونسية ، ما أهمله التاريخ.(ط 1،تونس:1987) ، ص 23.
- (11)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 154 .
- (12)- محمد ،التليي: ولد عام 1880 درس في الصادقية وتحصل على شهادة المدرسة المهنية ، اشتغل في الطباعة والنشر وتحصل على امتياز جريدة الزهرة . أنظر - محمد ،حمدان ، أعلام الإعلام في تونس 1860-1956.(ط 1 ، تونس: مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم ،1991)، ص 179 .
- (13)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 154.
- (14)- نفسه ، ص 155،156.
- (15)- نفسه ، ص 173.
- (16)- نفسه ، ص 173
- (17)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص173.
- (18)- نفسه ، ص175.
- (19)-ANT, On me communique les renseignements - Commissariat spécial, n 865. 19 le 31/05/1922, SMNT- D:2- C:21- DN:1. . SMNT – C:21 –DOS : 2)-ANT,- Rapport – Commissaire General. 07/02/192220 –DN:47 .
- (21)- محمد الناصر باي بن محمود بن حسين بن علي باي: ولد في 14جويلية 1855 بالمرسى وتأدب بالعربية ثم بالفرنسية وسمي واليا للعهد عام 1902 ليولي الحكم في 11ماي 1906، واستمر في الحكم 16 عاما، حيث أصدر مجلة العقود والالتزامات وأدخل لأول مرة نواب تونسيين في مجلس الشورى، عرفت تونس عدة أحداث في عهده منها حوادث الزلازل، توفي في 16جويلية 1922 .حول الموضوع أنظر - محمد ، بوزيبة ، مشاهير التونسيين.(تونس: م.و ، 1992)، ص 437، 438.
- * بينما ذكر محمد صالح لجري 30 عضوا وكان اللقاء يوم ثاني عيدا لفطر ، أنظر
- Mohamed Salah Lejri, Evolution du Mouvement National (des origines à la deuxième guerre mondiale (1^{ère} Ed,Tunis:Maison Tunisienne de l'Edition, 1974) 191..p,
- (22)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 180.

- (23)- المنصف باي بن محمد بن حسين: ولد في 4 مارس 1881 تعلم في المدرسة الصادقية ، رجل متعاطف مع الحركة الوطنية التونسية كمحادث عام 1920، حاول إقناع والده التنازل عن العرش بعدم تلبية السلطات الفرنسية للمطالب الوطنية في 5 أبريل 1920، ولي الحكم في 6 جويلية 1942 وألغى عادة تقبيل اليد، في 4 سبتمبر 1942 أقسم بالمصحف على خدمة الشعب 18 أوت 1942 وجه رسالة إلى رئيس الدولة الفرنسية المارشال بيتان فيها مطالب منها تأسيس مجلس تشريعي تونسي وتمكين التونسيين المساهمة في المجالس البلدية والمساواة في المرتبات بين الموظفين ، وإجبار التعليم وإثناء الحرب العالمية الثانية اتخذ موقفا محايدا، خلع من السلطة في 14 ماي 1943 وتم نفيه خارج البلاد، توفي في 1 سبتمبر 1948. حول الموضوع أنظر - محمد، بوذينة ، مرجع سابق ، ص 435-438 .
- (24)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 181.
- (26)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 183.
- (25)- يوسف، مناصرية ، ، الصراع الإيديولوجي في الحركة الوطنية التونسية 1934-1937 . (ط 1 ، سوسة ، تونس : دار الطباعة للنشر ، 2002) ، ص 152 .
- (27)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 168،169.
- (28)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 168،169.
- (29)- نفسه ، ص 185.
- (30)- نفسه ، ص 185،186.
- (31)- Toufik EL MADANI, Mémoire de Combat, (traduit par Malika Merabet) Alger: ENAP , 1989) , p.204.
(- Ibid. , pp.207,208,32)
- (33)- أحمد، الصافي ، صالح، فرحات، الطيب، الجميل ، أحمد، توفيق المدني ، >> بيان من الوفد إلى الأمة<< ، جريدة إفريقيا ، تونس ، العدد 29 ، بتاريخ (14/01/1925)، ص 1.
- 34- Ali ()- Mahjoubi, Les Origines du Mouvement National en Tunisie 1904-1934. 1^{ere} Ed, Tunis: La presse de la Société Tunisienne des arts graphique, 1982) , p367.
- (35)- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 298 ، 299 .
- 36- Ali (p, op.cit. Mahjoubi. 369.
- (37)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 300 .
- (38)- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 302 .
- (39)- نفسه ، ص 311 .
- (40)- نفسه ، ص 312 ، 313.
- (41)- نفسه ، ص 300-313.
- (42)- هو قانون يضمن تفوق الجالية الفرنسية في المحمية التونسية ضد مطامح موسوليني في إفريقيا ثم تأثيرات الحرب العالمية الأولى على النمو الديمغرافي السكاني وبموجبه يتم الناصر منها اليهود ، قدمته الحكومة الفرنسية في 31/ماي/ 1923 وصادق عليه مجلس النواب في 13 ديسمبر، بينما مجلس الشيوخ في 13 ديسمبر 1923 ، وتم نشره يوم 20/12/1923 ونص على ما يلي : حق الأجانب في كسب الجنسية الفرنسية وحتى التونسيين أنفسهم وقد صاحبه قانون تونسي في 8/12/1923 ينص على أن الأجانب المولودين بالإيالة التونسية قبل عشر سنوات همت تونسيين وبذلك هم فرنسيين بصفة آلية وقد عارضته بريطانيا في محكمة لاهاي لكن تم تسوية الوضع بين الطرفين على حرية الخيار للمالطيين بالقبول أو الرفض. حول الموضوع أنظر علي، المحجوبي ، جذور الحركة الوطنية التونسية (1904-1934). تعريب. عبد الحميد الشلبي ، (ط 1 ، مصر : شركة أرابيسك للطباعة ، 1999)، ص 370-371.
- (43)- أحمد ،توفيق ، المدني ، مصدر سابق ، ص 313.

- 44-نقلا عن المعهد الأعلى للحركة الوطنية التونسية، وثائق نصية وشفوية ، رجال الدين والحركة الوطنية التونسية 1881-1930، أحداث الثلاثينات من خلال الذاكرة، (دط، تونس:1939)، ص39.
- 45- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 281،282 .
- 46- أحمد ،خالد ، أضواء من البيئة التونسية - الطاهر حداد ونضال جيل. (ط 3 ، تونس:، الدار التونسية للنشر 1985)، ص184.
- 47- أحمد ،توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص22.
- 48- نفسه ، ص230-233-234-240.
- 49- أحمد، خالد ، مرجع سابق ، ص 187 .
- 50- محمد ،علي الحامي، محمد علي وحوادث الأيام. (ط1، تونس: مطبعة الإتحاد العام للشغل التونسي، 1985)، ص73.
- 51- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص286، 287.
- 52- أحمد، خالد ، مرجع سابق ، ص 193.
- 62- أحمد ،الصافي ، صالح فرحات ، الطيب الجميل ، المرجع السابق ، ص1.
- 53- مختار، العياشي، البيئة الزيتونية 1910-1945، مساهمة في تاريخ الجامعة الإسلامية التونسية . تعريب. حماد الساحلي، (تونس: م.و ، 1990)، ص147.
- 54- مجهول، << المطلوبون و جناية السيد أحمد المدني >>، دورية الجناة ، دون رقم عدد ،بتاريخ 1926/06/06، ص45 .
- 55- مجهول، نفس المرجع السابق، ص55، 56.
- 56- أحمد، خالد ، أضواء من البيئة التونسية، مرجع سابق ، ص 193.
- 57- أحمد، توفيق المدني ، مصدر سابق ، ص 336، 337 .
- 58- الجناة ، مرجع سابق، ص22.
- 59- أحمد، توفيق المدني، مصدر سابق ، ص 334-336.
- 60- نفسه، ص 159،160.